

TRADITIONAL CRAFTS IN THE ZYANID PÉRIOD THE CRAFT OF EMBROIDERY AS AN EXAMPLE


Prof. Dr. Nassira BEKKOUCHE¹

Tlemcen University, Algeria

Abstract

Tlemcen is considered one of the most important industrial cities in Algeria, rich in its traditional crafts throughout the ages, particularly the craft of embroidery, which was considered one of the main industries to the Zyanid period. Indeed, the sultans had a great interest in these trades which met their needs, such as making clothes, saddles, mattresses, etc. Sultan Abu Hamo Musa II paid particular attention to this craft and valued its owners, placing them in a social rank immediately lower than that of nobles and jurists. At this time, the artisan class achieved a distinguished place in Tlemcenian society. What is worth mentioning is that the Andalusians helped bring a lot of technical know-how to the Zyanid artisans, which increased the progress and development of the embroidery craft in Algeria in general and to Tlemcen in particular. This intervention raises a few questions: What is the origin of this craft? How did it arrive in Algeria? Did it exist in Algeria before the Zyanid period? What are the most decorative shapes with which royal clothing was embroidered? What were they referring to? What is its relationship to rituals and myths?.

Key words: Traditional Crafts, Embroidery, Symbols, Civilizations, Zyanid Period.

 <http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.24.1>

¹  Culture13@hotmail.fr

الحرف التقليدية في العصر الزياني حرفة "التطريز" أنموذجا

أ.د. بكوش نصيرة

جامعة تلمسان، الجزائر

الملخص

تُعتبر تلمسان من المُدن الصناعية الهامة في الجزائر، التي تزخر بحرفها التقليدية الفنية على مر العصور، وخاصة حرفة التطريز، التي كانت تُعد من أهم الصناعات الرئيسية في عهد الزيانيين، حيث كان للسلاطين اهتمام كبير بهذه الحرفة التي تلبي حاجاتهم، مثل صناعة الملابس والسروج والأفرشة وغيرها من المنتجات. وقد كرس السلطان أبو حمو موسى الثاني اهتماماً خاصاً لهذه الحرفة وقدر أصحابها، حيث وضعهم في مرتبة اجتماعية تلي مرتبة الأشراف والفقهاء مباشرة. وحققت فئة الحرفيين في ذلك الوقت مكانة متميزة في المجتمع التلمساني. وما يستحق الذكر، أن الأندلسيين ساهموا في إضافة الكثير من الخبرة التقنية للحرفيين الزيانيين، مما زاد من تقدم وتطور حرفة التطريز في الجزائر عامةً، وفي تلمسان خاصةً. وتطرح هذه المداخلة بعض التساؤلات: ما أصل هذه الحرفة؟ وكيف دخلت إلى الجزائر؟ وهل كانت موجودة في الجزائر قبل عصر الزياني؟ وما هي أكثر الأشكال الزخرفية التي كانت تُطرز بها الملابس الملكية؟ وإلى ماذا كانت تشير؟ وما علاقتها بالطقوس والأساطير؟

الكلمات المفتاحية: الحرف التقليدية، التطريز، الرموز، الحضارات، العصر الزياني.

الهدف من البحث:

1. التعريف بحرفة التطريز الجزائرية، والترويج لها، وإيصالها إلى العالمية، والبحث عن أنجع السبل والاستراتيجيات للنهوض بها كمادة تراثية، تساهم في التنمية للبلاد.
2. إبراز ضرورة التأريخ والتأصيل لحرفة التطريز في الجزائر بغية حمايتها والمحافظة عليها..
3. الكشف عن الرموز والدلالات الخاصة بالأشكال المطرزة على الأغطية والألبسة، وهي مختبئة بين طيات مضمون هذا الموروث الشعبي.

منهجية الدراسة:

تم اعتماد المنهج الوصفي، والتاريخي في انجاز هذا البحث، لتناسبهما مع طبيعة الموضوع، وجديتهما في تحقيق أهدافه.

1. تحديد المفاهيم:

1. تعريف الحرف التقليدية:

الحرفة مفرد: ج. حِرَفَاتٌ وحِرْفٌ: مهنة، صنعة، وسيلة الكسب من زراعة، وصناعة، وتجارة أو غيرها وأهل الحِرْف: أصحاب الصناعات (معجم اللغة العربية المعاصرة). وتُعد الحرف التقليدية من مقومات الهوية الوطنية، والتي تعني الانتماء والتمسك بالأصالة، أي تأصيل التراث والمبادئ والقيم..

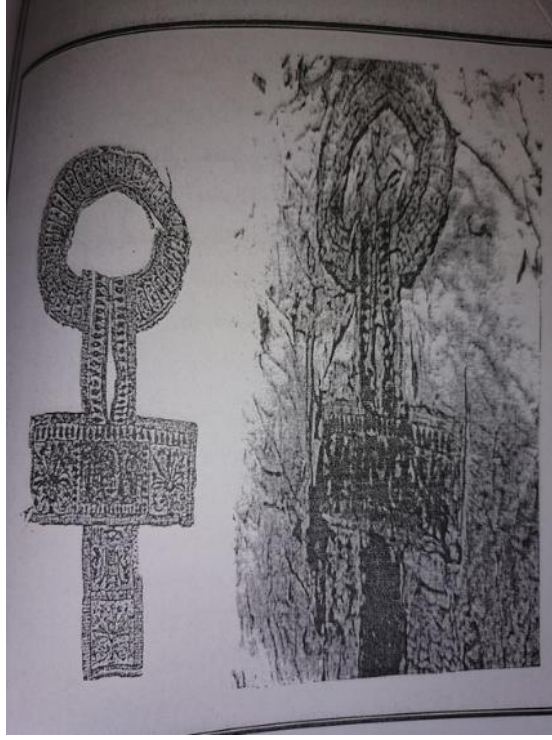
2. تعريف التطريز:

هو فنّ التوشية، وشى فلان الثوب يشيه، أي نقشه وحسنه، والطرز هو النّمت أو الشّكل، وهو لفظة معرّبة من كلمة "ترازيدين" الفارسية، وهي تُرادف الكلمة الإنجليزية "Embroidery". والفعل يطرز أي يُحدث زخرفة تطبّق على هيئة مختارة من نسيج معيّن أو من الجلد (رفعت، 2014؛ عبد العزيز التهامي، 2003، صفحة 238). والتطريز هو زخرفة القماش بعد أن يتم نسجه بخيوط من الحرير المختلف الألوان أو بخيوط معدنية من الذهب أو الفضة. وغالبا ما تكون مادة خيوط التطريز أعلى من مادة القماش. (معجم اللغة العربية المعاصرة)

2. تاريخ التطريز في الحضارات القديمة:

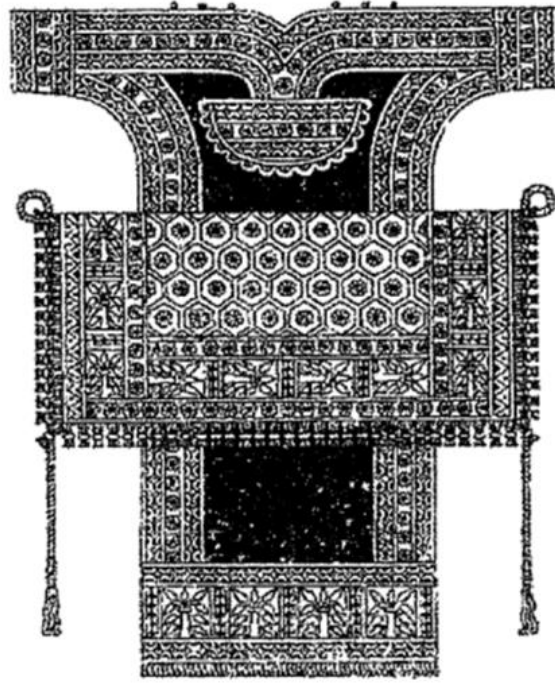
انتشر فن التطريز في العصر الفرعوني، وكان متخصصا في تزيين ملابس الملوك والكهنة، وكانت هذه الأثواب المطرزة تُقدم كهدايا، يتبادلونها الملوك فيما بينهم، وقد ورد ذكر هذا النوع من اللباس في كتاب هيرودوت، إذ يصفه قائلا: "إن الثوب الذي أرسله أمازيس ملك مصر هدية إلى الإسبارطيين، واستولى عليه الساموسيون أثناء إحدى الغارات، كان مصنوعا من الكتان الناعم، ومطرزا بخيوط ذهبية، وعليه رسوم لحيوانات عديدة تمت حياكتها على القماش، وإن الشيء المذهل فيه، أن كل خيط رفيع حيك منه القماش، كان يتألف من ثلاثمائة وستين خيطا مجدولا على حدة، وجميعها واضحة للعيان، وهويماثل الثوب الذي أهدها أمازيس إلى معبد أثينا في ليندوس". (هيرودوت، 2001، صفحة 239)

كما يظهر فن التطريز أيضا، على قفطان توت عنخ أمون، وتشير إليه سنية خميس قائلة: إن القفطان المطرز النسائي الحالي في بلدان الوطن العربي، يشبه كثيرا القفطان القديم. ويظهر التشابه واضحا في الإطار الخارجي، التصميم والشكل العام والتطريز المضاف. وقد أكد هذا ما وصفه "سعد الخادم" حيث أوضح أن القفطان المطرز الذي ترتديه النساء السيويات بمصر يشبه إلى حد كبير القميص المطرز الذي وجد في مقبرة "توت عنخ أمون". (خميس صبحي، 2007، صفحة 118)



قميص فرعوني مطرز (قميص توت عنخ امون)
المرجع: (خميس صبحي، 2007، صفحة 120)

كما عرف السوماريون والأشوريون أيضا، الأثواب المطرزة، وكانت مخصصة للملوك والكهنة، وتُشير إلى السلطة والمكانة العالية، وتدل على القداسة والعظمة، وقيمتها كانت مرتفعة جدا؛ لأنها كانت تطرز بالذهب وتزخرف بالآلئ والأحجار الكريمة. ويتحدث وليد جادر عن تلك المعاطف المطرزة الفخمة قائلا: "كانت ملابس الآلهة والملوك في وادي الرافدين عموما مزدحمة أحيانا بوحدات زخرفية وتطريزية، إضافة إلى عناصر تجميلية تكون في العادة من الذهب والأحجار الكريمة. (جادر و مج.الباحثين، 1985، صفحة 334)



قميص آشوري مطرز

المرجع: (عبد الحسين الربيعي، 2013، صفحة 49)

وعرف الكنعانيون أيضا، فن التطريز على الملابس، وقد " كانت بلاد كنعان مركزا تجاريا، وكانت تُصدر الكثير من أنواع الأقمشة المطرزة الأرجوانية التي كانت تباع الى سكان جزر بحر ايجيه، وكان ذلك حوالي 1500 سنة ق. م على الأقل".
(نصر و أحمد طاحون، 2006، صفحة 166)

والكنعانيون الفينيقيون هم عرب من سكان الشام كونوا لهم أسواقا تجارية عبر البحر في اسبانيا، وساحل شمال إفريقيا، وجزيرة قبرص، ومالطا وكريت، وكانوا يبيعون في هذه الأسواق منتجاتهم، وهي الفنون التطبيقية من التحف المعدنية والملابس المطرزة والأرجوانية اللون (نصر و أحمد طاحون، 2006، صفحة 167). وفي العصر اليوناني والروماني استمر اليونانيون في إنتاج المنسوجات المطرزة والأرجوانية اللون وكانت تصدر إلى اليونان وروما، وكان المحاربون اليونانيون والمحاربون الرومان يحملون الملابس المطرزة عند عودتهم إلى بلادهم كهدايا. (نصر و أحمد طاحون، 2006، صفحة 167)

وتتحدث ثريا نصر حول أصالة التطريز العربي وتأثيره على المجتمعات فتقول: " فنحن نرى حتى أيامنا هذه تأثير فن التطريز العربي الكنعاني على ازياء اليونان وكريت وقبرص ومالطا وكذلك الشكل العام للزي الشعبي. (نصر و أحمد طاحون، 2006، صفحة 166)

وما هو جدير بالذكر أن الفينيقيين كانوا على اتصال مباشر مع الإمبراطوريات الكبرى المعاصرة لهم مثل: المصرية القديمة، والأشورية والفارسية ولاحقا اليونان والرومان وغيرهم... ويأتي الأشوريون ضمن الشعوب التي كانت لها اتصالات قوية بالساحل الفينيقي... والملاحظ عن الحضور الأشوري بالمنطقة أنه استمر لفترة تزيد عن ثلاثة قرون متتالية. (مازيل، 1990، صفحة 31؛ سلاطنية، 2020، صفحة 83)

ويوضح أكثر جان مازيل تلك التأثيرات قائلا: "كان موقع المدن الفينيقية عند عقدة طرق عالمية قد أفسح المجال لدى فينيقي الشرق لاستقبال تأثيرات من الحضارات المجاورة، حيث أخذوا بهذه التأثيرات وجعلوا منها نوعا من التركيب الحضاري... إذ كانت هناك تأثيرات كريتية وقبرصية، ثم من الشمال تأثيرات حثية، ولكن أهم وأعمق منها كانت تأثيرات بلاد الرافدين، كما أن بعض الكنوز الفنية تشير إلى التأثير بالحضارة المصرية. ثم بدأ التأثير الإغريقي بالهور تدريجيا ريثما كانت حملة الإسكندر الكبير سنة 332 التي فتحت الباب واسعا أمام تيار الهلنستية الذي كان له أعمق الأثر. (مازيل، 1990، صفحة 63)

ويقول أيضا: "من أبرز الأمثلة على التأثيرات المشتركة في الفن الفينيقي، كان ما وقع اختياري عليه وهو: التابوت الحجري الضخم لملك صور أحيرام من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ثم تلك التوابيت الحجرية التي تنسب إلى صيدون في القرن الخامس عشر ق.م، وقد عثر على تابوت أحيرام في المقبرة الملكية الكبيرة في جبيل (بيبلوس) الملك أحيرام فوق عرشه... والملابس التي كان يرتديها أحيرام وغطاء رأسه وخصلات لحيته كلها تحمل علامات وميزات الفن لبلاد الرافدين... وظهر حوله أفراد حاشيته من ندماء ووزراء وخدم، ويظهر التأثير المصري في ألبستهم، كما نلاحظ بشكل خاص ارتدائهم ذلك القفطان الشرقي الكبير الذي أصبح فيما بعد الدلالة المميزة للنبلاء والكهنة الفينيقيين. (مازيل، 1990، صفحة 63)

إلا أن ما يجب ذكره، أن ذكرنا لاستقبال الفينيقيين لبعض التأثيرات الفنية من جيرانهم، لا يجعلنا ننكر إمكانيتهم الإبداعية، وإنجازاتهم وابتكاراتهم الفنية العظيمة، ولا سيما في مجال صناعة اللباس، وإنما للإشارة فقط أنهم تحاوروا وتداخلوا وتمازجوا مع حضارات أخرى، لقد أبدعوا هم كذلك وابتكروا وأضافوا إلى ما أخذوه واقتبسوه من فون بصمتهم الخاصة، فأنتجوا روائع فنية في غاية الجمال والبهاء.

3. حفرة التطريز في الجزائر:

عرفت الجزائر فن التطريز في عصر ما قبل الميلاد، حيث كان النوميديون يلبسون سترات حمراء غنية التطريز (GSELL, 1927, p. 29). ويحكى أن بطليموس قُتل بسبب حُلته المطرزة الجميلة التي كانت في غاية الفخامة، "فعندما استدعى الإمبراطور القيصر الروماني الملقب بقاليقولا بطليموس إلى روما ليحضر حفلة كبيرة يقيمها الرومان في عيد من أعيادهم، ذهب بطليموس الملك الأمازيغي في حاشيته وأبهته. وفي أثناء الحفلة وهو آمن، أمر الإمبراطور قاليقولا بالقبض عليه. وقالوا أن السبب هو غيرته من حلة بطليموس (ابن يوبا الثاني وأمه رومانية مقدونية) الأرجوانية المطرزة، وأبهته التي لفتت إليه الأنظار في الحفلة.

ولا شك في أن الحضارة القرطاجية التي قد عاشت ما يقرب من ألف سنة تركت بصماتها على نوميديا، وخاصة فيما يتعلق بالمعادن واللباس، وتقول الباحثة سهام جداد: "لقد برع القرطاجيون في صناعة المعادن والثياب الأرجوانية... ونجحوا أيضا في الدباغة والحياكة والصبغة..." (حداد، 2009، صفحة 85) وتضيف قائلة: "قام القرطاجيون بتعليم البربر لغتهم البونية وجلبوا لهم الثياب الملونة الأرجوانية." (حداد، 2009، صفحة 110)

ويتحدث أصطيفان أكسيل أيضا، عن تأثير النوميدين بفنون الفينيقيين وأحفادهم القرطاجيين، ومنافستهم لهم قائلا: "وقد أشار هيرودوت إلى النسائج، التي كان النساء الصيداويات يطرزنها، وكذلك فإن القرطاجيات لم يهملن تعاطي العمل في الثياب، فقد عُثر في بعض القبور على أدوات كانت تستعمل في القتل والطرز والنسيج... وكانت بعض القطع

تتطلب سنوات من العمل، وحسب بعض الكتاب اللاتينيين، كانت مدينة القالة على الساحل الجزائري، تزام مدينة صور في صوفها المصبوغ بالأرجوان، ولربما هذه الشهرة ترجع للعهد البونيقى. (أصطيفان، 2007، صفحة 79)

ويُشير إلى نفس الرأي، جميل حمداوي إذ يقول: "لقد استفادت الثقافة النوميديّة من ثمار مجموعة من الحضارات المجاورة، مثل الحضارة الفينيقية، والحضارة المصرية، والحضارة اليونانية، والحضارة القرطاجنية، والحضارة الرومانية... وقد ساعدت هذه الثقافات المتوسطة المجاورة، الثقافة الأمازيغية المحلية على الانفتاح والازدهار والانتعاش والتقدم في جميع المجالات واليادين، بل حققت الحضارة الأمازيغية، في فترة من الفترات، نوعاً من التعايش بين الأنا والآخر، في أثناء التعايش مع الثقافة الفينيقية، والثقافة المصرية، والثقافة اليونانية، والثقافة القرطاجنية..". (حمداوي، 2016، صفحة 174)

ويضيف موضحاً مدى التأثير والتأثر الناجم عن هذا التواضع والتعلق العميق بين الحضارات قائلاً: "استطاعت هذه الثقافة الأمازيغية عبر جدلية التأثير والتأثر، أن تحقق طفرات حضارية كبرى على مستوى البحر المتوسط بصفة خاصة، وعلى مستوى الثقافة العالمية والإنسانية بصفة عامة....لقد كانت العلاقات بين الثقافة الأمازيغية والثقافات الأخرى عبر مختلف العصور التاريخية، مبنية على الأخذ والعطاء، وقائمة على ثنائية التأثير والتأثر... وعلى أي حال، لقد كانت الثقافة الأمازيغية عبر تطورها التاريخي في الوقت نفسه، ثقافة متوسطة وثقافة أفريقية وثقافة عالمية وإنسانية . (حمداوي، 2016، صفحة 194)

ثم أصبحت حرفة التطريز في العهد الرستمي أكثر نمواً وتطوراً من العصور التي مضت، وقد جاء في قول عبد العزيز سالم: "واتخذ أهل مدينة تيهرت الفرش والستائر المزخرفة، والخيل المسومة، وتنوعت الألبسة، وتعددت اللغات والأزياء، ورأوا ما لم يخطر لهم ببال". (السيد عبد العزيز، 1999، صفحة 463)

ويشير إلى هذا التطور، جودت عبد الكريم أيضاً قائلاً: "لقد غالت تيهرت في صنع واستيراد الأثواب والمنسوجات الفاخرة في ذلك الوقت الذي عرف بالترف والبذخ في الملابس بمختلف أشكاله نتيجة الاحتكاك الواسع بين الشعوب في ظل الإسلام، الذي مزج بين الأنماط والأزياء، فأنتج زياً يمكن اعتباره الزي الإسلامي، وتبأثر النسيج المغربي بالفارسي وبالاندلسي إلى غير ذلك حتى أصبح مختلف مناطق البحر الأبيض المتوسط متشابهة، فكان من نفس المادة الأولية، ومزينا بصور وبكتابات عربية وذات ألوان متشابهة ويحمل نفس الزخرفة." (جودت، 1986، صفحة 89)

كما نال هذا الفن شهرة وشيوعاً في عهد الزييين والحماديين، ويتحدث عن هذا الفن، الهادي روجي إدريس قائلاً: "وكان التجار والمسافرون يتوافدون على قلعة بني حماد من المشرق والمغرب، وكان يصنع بها لبد سروج والأكسية الغليظة ذات النسيج الجميل، المطرزة بالذهب والمنسوبة إليها". (الهادي روجي، 1992، صفحة 100، 207)

ويرد ذكر هذا الفن أيضاً، في كتاب الاستبصار: "حيث كانت تصنع بقلعة بني حماد أكسية ليس لها مثل في الجودة والرقّة، وكان التجار يتفننون في لباسهم. (سعد زغلول، صفحة 170؛ الهادي روجي، 1992، صفحة 205)

وبعد مجيء العصر الزياني (13م-15م)، أصبحت حرفة التطريز أكثر تفنناً وتطوراً، وأصبحت من أهم الصناعات الرئيسية في تلمسان، وخاصة وأن أهل تلمسان نساءً ورجالاً، كانوا يهتمون بمظهر الملابس، ويعتنون بالهيئة والهندام فيلبسون أحسن الثياب.. "ويحكى أن سلاطين المغرب وتونس كانوا يستحسنون الملابس التلمسانية وما يصنع منها من أقمشة، ولاسيما منها أقمشة الصوف الرفيع والدليل على ذلك أن أحد سلاطين تونس أراد أن يتباهى بديقة صناعة الأحرام وخفّتها، فأرسل إلى أميرة الحياكة بتلمسان وصاحب صناعة الصوف الرفيع أبي زيد النجار بعض الأحرام التونسية، تزناً

الواحدة منها خمس أواق، فَرَدَّ عليه أبو زيد بأحارم تلمسانية، من صنع ورشاته تَزِيدُ عنها طولاً وعِزْضاً، وتنقُصُ عنها وزناً بأوقية ونصف أوقية. " (فيلاي، 2002، صفحة 267)

وكان السلطان أبو الحسن المريني، يكثر من إهداء الأثواب المصنوعة بتلمسان إلى أعوانه وجلسائه، وكانت ملابس الطبقة الخاصة فاخرة من الحرير والديباج والقطن والصوف الرفيع، وكان اللباس المطرز (القباء) إشارة أو علامة من علامات الملك في العصر الزياني، وتشير المصادر إلى اعتماد شارات الملك والسلطان خاصة في الأعياد والحروب منذ مدة حكم السلطان أبي تاشفين الثاني 1388-1393م، عملاً بوصايا والده أبي حمو موسى الثاني (1359-1389م): "يا بني ويستحسن للملك أن يتخذ رجالاً أنجاداً كفاة أطواداً، يكونون مشائين إذا ركبت، ومنصرفين حيثما سرت، يكون لهم ترتيب في اللباس، ويمتازون بذلك على سائر الناس، ويتزينون بالأقبية (القفاطين) الحسان المختلفات الألوان، وبأيديهم الحراب عليها صغار الرايات، من أنواع الحرير مختلفات؛ لأنهم مما يزيدون في بهاء الملك وجماله، وفخامته وكماله، وهم مما يترزين به الملوك والأمراء." (أبو حمو، 1862، صفحة 81)

لقد حققت فئة الحرفيين لنفسها مكانة متميزة وسط المجتمع التلمساني، وربما كان من العوامل المتحكمة في ذلك، هو اهتمام السلاطين الزيانيين بالصناعة، فقد كان السلطان أبو حمو موسى الثاني يعتني بالحرف ويقدر أصحابها. وهو من وضعهم في مرتبة اجتماعية تلي مرتبة الأشراف والفقهاء مباشرة عند جلوسه لاستقبال مختلف فئات المجتمع التلمساني في قصره بالمشور في يوم الجمعة من كل أسبوع. (وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، 2011، صفحة 35)

وكانت دور الطراز مؤسسات حكومية تعين الدولة على رأسها موظفا يعرف بناظر الطراز أو صاحب الطراز. ومهمته مراقبة الجودة ووضع اسم الخليفة على النسيج. وانتشرت هذه المعامل في كل أرجاء الأندلس التي كانت مطلوبة جداً، وكان المنصور بن أبي عامر يهدي الأمراء المسيحيين قطعاً كثيرة من الحرير الطرازي وغيره. (شحلان: الحياة العامة في أندلس العصر الوسيط)

ويشير الكثير من الباحثين إلى أن المستوى الحضاري الذي بلغته مدينة تلمسان في الصناعة خصوصاً في العهد الزياني، كان بفضل مساهمة الأندلسيين الذين برعوا في النسيج والطرز والخياطة. فقد أضاف الأندلسيون الكثير من الخبرة للحرفيين التلمسانيين، بفضل تحكّمهم في التقنية الصناعية التي تطورت في مدن بلنسية واشبيلية وسرقسطة وغيرها... لقد ساهم الأندلسيون المسلمون والنصارى في تطوير الصناعات التقليدية التلمسانية بقسط وافر، إلى جانب العناصر المحلية. (بلعربي، 2011، صفحة 211)

لقد نجم عن الهجرة الأندلسية إلى تلمسان في عهد السلطان يغمراسن أن زاد في تطور صناعة النسيج بعدما اشتغل التلمسانيون في الطرز ونسيج الحرير وحياسة القطن والكتان وغزل الصوف، ويؤكد على هذا ابن الأعرج في قوله: "وكان لعهد نزول الأندلسيين بها (تلمسان) مزداة بالمصانع المفيدة، فما شئت من أطرزة ومنسوجات الحرير والقطن والكتان والصوف. (فيلاي، 2002، صفحة 219)

ويشير إلى هذا التأثير الباحث الشيخ حكيم فيقول: "لقد عرف المجتمع التلمساني في العهد الزياني تطوراً ملحوظاً في صناعة النسيج، لاسيما بعد النزوح المورسكي واليهودي أثناء سقوط غرناطة، فكان لها الأثر الكبير في التأثير على اللباس، فعرفت عندئذ نماذج ملابس ذي الخصائص الموربية الجديدة منها القفطان والشاشية والحلي اليهودي الفاخر. (الشيخ، 2013، صفحة 187) كان اليهود يطرزون القطيفة وألوان أخرى من الكتان ليصنعوا منها ألبسة فاخرة، ومنها: "الكسوة

الكبيرة"، وهي عادة لبس العرس. كما يُقال إنه حتى ملابس الدايات وعائلاتهم كانت تُصنع من طرف اليهود في ورشات خاصة بقصور الحكام. (بن عبد الله التنسي، 2011، صفحة 31)

ويؤكد حاييم الزعفراني على اشتهار اليهود بحرفة التطريز، ونسبها لهم، قائلا: "تعد صناعة خيوط المعادن الثمينة والمصنوعات المتنوعة التي تعتمد هذه المادة الأولية الثمينة أكثر الصناعات اليهودية ازدهارا، وجاء اسم هذه الحرفة في مصادرها بصيغة عبرية-عربية هي: "مليختا صقلي" (مهنة الصقلي)، ويطلق على أرباب العمل وعمال الحرفة "الصقليين" ويبدو أن هذه الحرفة جاءت في ركاب اليهود النازحين من الأندلس. (الزعفراني، 2000، صفحة 395)

وما هو جدير بالذكر أيضا، أن التجارة الخارجية لعبت دورا هائلا في انتشار الملابس المطرزة في تلمسان، حيث كانت هذه الأخيرة تستقبل التجار من كل صوب، وظلّ أهمّ مكان للبيع والتبادل التجاري "القيصرية" أين كان يتجمع مختلف التجار سواء من أهل المدينة أو من مسيحيين ويهود والذي كان عددهم هائل بمدينة تلمسان.

(Marçais, 1950, p. 90)

كانت تصل إلى المدينة مختلف المنتجات من الأندلس خاصة، التي كُنيت كثيرا بصناعة المنسوجات ويكفي أن نذكر أهمّ مدينة من مدن الأندلس وهي ألمرية (Almería) والتي كان لها عدد كبير من دور الطراز، بلغ ثمان مائة طراز، وكان بها معمل للنسيج يصنع بها الديباج وصنوف أخرى من نسيج الحرير، وعرفت مالقة بالموشي المذهب..

وكان سهل وادي الوريث بضواحي تلمسان يحتوي على مجموعة من الورشات الصناعية، أسسها المهاجرون الأندلسيون، ونقلوا إليها صناعة الأطرزة والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتان والصوف. (فيلاي، 2002، صفحة 221)

كما كان للمرأة دور كبير في مجال المنسوجات والطرز في العهد الزياني، فقد كانت تشغل في الورشة أو في عقر دارها، فتطرز الأثواب والأفرشة مثل (مخدّات) و(السطارم) والأغطية والستائر والمناديل، فتوشيها بالذهب أو بالحرير الخالص، وتزخرفها بأنواع من الزهور ذات الألوان المختلفة الزاهية. لقد شكلت صناعة الطرز في الجزائر، إحدى الفروع التشكيلية الهامة، وقد أشادت جُلّ المصادر الغربية بذلك كما أكدته الكتابات العائدة إلى بداية الاحتلال " وتطريز الجزائريين بارع ويدل على ذوق رفيع والطلب على منتجاتهم قوي في الخارج. (Anselin & Gautier, 1836, p. 336)

4. الملابس المطرزة ودلالاتها، وعلاقتها بالأسطورة:

ننظر لهذه الألبسة المطرزة، التي تعود جذورها للماضي السحيق، والتي كانت في مجملها خاصة بالملوك والآلهة، من زاويتين، زاوية شكلية جمالية، وزاوية سمبولوجية مفهومية، فالأولى ظاهرة للعيان وتتمثل في جمال الشكل وفخامة القماش وبهاء اللون. أما الثانية فهي خبيثة في الذاكرة الجماعية، ولها دلالات متعددة، ويشير إليها وليد جادر إذ يقول: "فما تتميز به الثياب المطرزة الخاصة بالملوك والآلهة، أنها تعكس الضياء، وهي ذات لمعان خاص، ولمعانها هو ثوبها لأنها تبدو في ثيابها معظمة. والمعروف أن للعديد من هذه الملابس الإلهية، وحتى الملكية والخاصة بإنجاز الطقوس الدينية، كانت لها ميزة القدسية أو تكون مثل هذه الملابس، ذات قوة وسيطرة نافذة تكمن في قوة لابسها من الآلهة وبعض الملوك". (جادر و مج.الباحثين، 1985، صفحة 56)

يشكل الخوف من العين والحسد معتقدات توارثتها البشرية من أجيال إلى أجيال، وفي رحلة البحث عن مضادات حيوية ضدّ العين والحسد، عرف الإنسان الكفّ والعين والخمسة وخميسة، وغيرها من الوسائل التي يُعتقد أنها مفيدة لدرء الحسد، وأبعاد العين، وقد استعملت "يد الخامسة"، وهي على شكل يد الإنسان في الرموز الهيروغليفية، حيث كان

المصريون يعتقدون أنها تساعد على تجميع جسم الإنسان بعد موته لتعمل في الحياة الأخرى، واستعملت أيضا عند الكثير من الشعوب. وتعتبر الخامسة رمزا من رموز الإلهة "تانيت" وقد وجدت بكثرة على الأنصاب التذكارية، ومعناها يشير لدرء العين وأبعاد الشر. كما اعتبرت هذه اليد المرتفعة عند البربر علامة تمثل المباركة والحماية والدعاء. (الماجدي، 2001، صفحة 77)



رمز تانيت اليد المرتفعة واليد موجودة على اللباس العصري المطرز.
المرجع: (الماجدي، 2001، صفحة 82)

ومن رموز "تانيت" أيضا: النجمة والهلال. ولعل الكثير من النقوش البونية كانت تحمل رموز الإلهة تانيت على شكل كوكب الزهرة يتصل به هلال، ويشير هذا الرمز إلى أمرين أولهما العذرية حيث يرمز له من خلال القمر وتطابقت فيه تانيت مع العذراء (كايستس) في الحقبة الرومانية، والثاني يرمز إلى الخصوبة والأمومة التي عرفت بها "نوتريكس"، النجمة، أو يرمز لها برمانة، أو حمامة، أو سنبله الخ (الماجدي، 2001، صفحة 84). وهذا ما توضحه الصورة الآتية:



نجمة يتصل بها هلال
المرجع: (الماجدي، 2001، صفحة 84)

ومن الأشكال الأخرى التي تتشكل في الملابس التقليدية المطرزة، والتي تعتبر رموزا لـ "تانيت": السنابل، القرص والهلال، النجمة المشعة (نجمة الزهرة)، الصولجان، السمكة، والأذن المصغية. "وتعتبر الأذن المصغية رمزا للإلهة تانيت كما هي للإله حمون دلالة على الصلاة والأدعية التي توجه لهما وكانت تنقش على الحجر مفردة أو مزدوجة. (الماجدي، 2001، صفحة 85)



رسم على القفطان العصري يشبه شكل عجل بعل



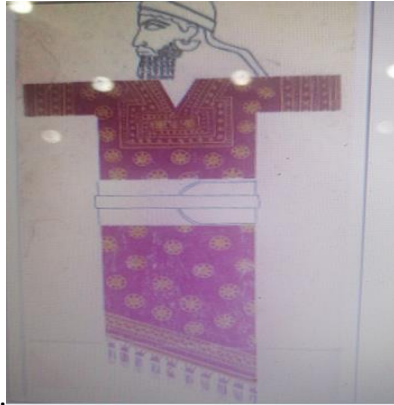
شكل دائري على رأس عجل بعل

المرجع: (الماجدي، 1999، صفحة 119)

يظهر بجلاء أن النجمة الثمانية الأضلاع الموجودة داخل القرص، والمزخرفة على القفطان العصري هي نفسها الموجودة على الأنصاب التذكارية والتي نراها مجسدة على رأس الإله بعل، وان دل هذا على شيء، فإنه يدل على ارتباط الماضي بالحاضر، فلا زالت تلك الأشكال بكل ما تحمله من مفاهيم ورؤى ومعاني، تتردد في حياتنا وعاداتنا من دون أن نشعر.

ومما يرجح أن هذا الشكل (النجمة الثمانية داخل القرص) قديم جدا، وكانت تشترك فيه الكثير من الحضارات، ولاسيما الحضارة الآشورية، ما يشير إليه الباحث عبد العزيز حميد صالح، فيقول: "صناعة اللباس وزخرفته بالحلي والأشكال الهندسية (كالنجمة ذات الثمانية رؤوس) كانت متقدمة جدا في كبريات المدن الآشورية في ذلك العصر. نلاحظ ذلك بوضوح على قميص ملكي فاخر منقول على رسم جداري خاص بواحد من الملوك الآشوريين تزيينه أشكال نجوم صغار وكبار من ذوات الثمانية رؤوس ورتبت داخل أقراص دائرية، تدل على أن القميص في الأصل كانت مثبتة عليه قطع ذهبية على شكل نجوم، وفضلا عن ذلك، هناك عناصر زخرفية هندسية تزين الحافة السفلية للقميص". (حميد صالح، 2018،

صفحة 48)



صورة لقميص كان يرتديه بعض الملوك الآشوريين عليه رسومات النجمة الثمانية أضلاع داخل القرص

المرجع: (حميد صالح، 2018، صفحة 48)

ولا يزال هذا الشكل (النجمة الثمانية الأضلاع)، إلى يومنا هذا يستعمل في طرز وزخرفة الكثير من الملابس الجزائرية، وخاصة "الكركو" و"الجبة القسنطينية"، و"القفطان"، و"الشاشية"، و"البنيقة" وغيرها. ومن الأشكال القديمة أيضا، والتي نجدها بكثرة في زخرفة الملابس، "الرمانة" وتعتبر من رموز الإلهة "تانيت"، إذ ترمز للكثرة والرخاء، وتتحدث عنها الباحثة فتيحة فرحاتي: "أن الفضل يعود للفينيقيين لإدخال فاكهة الرمان إلى شمال إفريقيا، وهي معروفة باسم التفاحة البونيقية عند الرومان وترمز إلى الثراء عند البونيقيين." وهوشأن النخلة التي يشار إليها بالألم المغزية وتظهر على بعض النصب وهي تحمل طفلا، وكانت النخلة ترمز عند الفينيقيين إلى الثراء وإلى الآلهة "تانيت"، والقمين ذكره أنه كان يرمز لصورة "تانيت" برمز يتألف من ثلاثة أجزاء: مثلث بمثابة البدن، خط أفقي ينتهي طرفاه بشكل اليدين، دائرة قرص تمثل الرأس، المجموع يُمثل إنسانا رافعا يديه تضرعا للسماء. (فرحاتي، 2007، صفحة

(242)

خاتمة:

ولنا أن نخلص في الأخير، بأن تلمسان تُعد من المدن الصناعية الهامة في الجزائر، ولعل أكبر عامل، ساعد على نجاح الحياة الاقتصادية فيها، موقعها الاستراتيجي الذي جعل منها "قاعدة المغرب الأوسط وعاصمته" كما عنونها البكري. ولنا أن نستنتج أيضا، أن حرفة التطريز في تلمسان لا تخرج في مظاهرها عن كونها استمرارا وتطورا لمظاهر الحضارات السابقة، وعلى الرغم من أنها اقتبست الكثير عن تلك الحضارات في مجال فن التطريز، إلا أن الطرز الجزائري ينفرد عن باقي الأطرزة الأخرى بخصوصية متميزة، تتمثل في الفخامة والجودة والجمال. إن "فن التطريز الجزائري" أصيل لم يولد من العدم، وإنما شيد من تليدٍ عريقٍ زاخرٍ بالحركة والتّماء، وهو عنصر هام من عناصر الهوية الوطنية، وامتداد السلف في الخلف واستمرار مآثر الأجداد في الآباء، ومآثر الآباء في الأبناء والأحفاد، بل هو تاريخ يحكي وحضارة تنم عن تراكمات معرفية وأخلاقية، لها قابلية الانفتاح والتفاعل مع الثقافات الأخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

- أبو حمو موسى العبد الوادي(ت.388-791 هـ). (1862). واسطة السلوك في سياسة الملوك. تونس: مطبعة الدولة تونس.
- إدريس الهادي روجي. (1992). الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقيا في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م (ج1). (ترجمة: حمادي الساحلي). (ط1) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أكسيل أصطيفان. (2007). تاريخ شمال إفريقيا القديم: الحضارة القرطاجية (ج4). (ترجمة: سعيد محمد التازي) الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- ثريا نصر، وزينات أحمد طاحون. (2006). تاريخ أزياء الشعوب. (ط4). القاهرة.
- جان مازيل. (1990). تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية. (ترجمة: ريا الخش). (ط1). سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- جميل حمداوي. (2016). معالم الحضارة الأمازيغية (ط2).
- حاييم الزعفراني. (2000). يهود الأندلس والمغرب (الجزء الأول). (ترجمة: أحمد شحلان). المغرب: مرسوم الرباط.
- حكيم الشيخ. (2013). مدينة الجزائر الأوضاع الاجتماعية والأنثروبولوجية (1945-1954م). الجزائر: دار هومه للنشر والتوزيع.
- خالد بلعربي. (2011). الدولة الزيانية في عهد يغمراسن-دراسة تاريخية وحضارية. الجزائر: دار الألمعية للنشر والتوزيع.
- خالدة عبد الحسين الربيعي. (2013). تاريخ الأزياء وتطورها الطبعة العربية. عمان- الأردن: دار البيازوري العلمية للنشر والتوزيع.
- خزعل الماجدي. (2001). المعتقدات الكنعانية (ط1). عمان: دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع.
- خزعل الماجدي. (1999). الآلهة الكنعانية (ط1). عمان: دار أزمنة.
- السيد عبد العزيز سالم. (1999). تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. الإسكندرية- مصر: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
- سنية خميس صبحي. (2007). أنماط من الأزياء التقليدية في الوطن العربي وعلاقتها بالفلكلور. (ط1). القاهرة: عالم الكتب.
- عائشة عبد العزيز التهامي. (2003). النسيج في العالم الإسلامي من القرن 14 إلى 17- دراسة اثرية فنية- (ط1). الإسكندرية- مصر: دار الوفاء لدنيا الطبائع والنشر.
- عبد الحميد سعد زغلول. الاستبصار، في عجائب الأمصار. مشروع النشر المشترك.
- عبد العزيز حميد صالح. (2018). الأزياء عند العرب عبر العصور المتعاقبة. بيروت- لبنان: دار الكتب العلمية- ناشرون.
- عبد العزيز فيلاي. (2002). تلمسان في العهد الزياني (ج1). الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.
- عبد الكريم جودت. (1986). الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأوسط، خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9 و 10 ميلاديين). بن عكنون- الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- فتيحة فرحاتي. (2007). نوميديا من حكم الملك جايا إلى الاحتلال الروماني الحياة السياسية والحضارية (213 ق.م/46 ق.م). الجزائر: منشورات أبيك.

محمد بن عبد الله التنسي. (2011). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الذر والعقيان في بيان شرف بني زيان. (تحقيق وتعليق: محمود آغا بوعياذ) الجزائر: موفم للنشر والتوزيع.

هبرودوت. (2001). تاريخ هبرودوت. (ترجمة: عبد الإله الملاح). (مراجعة: أحمد السقاف وحمد بن صراي) أبوظبي: المجمع الثقافي.

وليد جادر، ومجموعة من الباحثين. (1985). تاريخ العراق. (ج4). بغداد.

المنشورات والملتقيات:

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. (2011). تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني. تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية. ج2. الجزائر: الملتقى الدولي.

المذكرات والرسائل الجامعية:

سهام حداد. (2009). سلسلة موانئ الشرق الجزائري القديمة: دراسة تاريخية وصفية اعتمادا على المصادر المادية. (رسالة ماجستير). قسنطينة- الجزائر: جامعة منتوري.

عبد الملك سلاطينية. (2020). المستوطنات الفينيقية- البونية في الحوض الغربي للبحر المتوسط. (أطروحة دكتوراه). قسنطينة-الجزائر: جامعة منتوري.

الكتب الأجنبية:

Anselin & Gautier. (1836). R. Annales Algeriennes (Tome2). Alger.

GSELL, Stéphane. (1927). Histoire de L'Afrique du Nord, Les Royommes Indigenes (Tome 6). Paris: Vie Materielle Intellectuelle et Morale.

Marçais, George (1950). Histoire de Tlemcen . France: Librairie Renouard.

المواقع الإلكترونية:

أحمد شحلان. الحياة العامة في أندلس العصر الوسيط. تم الاسترداد من الرابط:
http://historyinarabic.blogspot.com/2013/12/blog-post_2025.html

35. معجم اللغة العربية المعاصرة . <https://www.maajim.com/dictionary>.

36. هشام خالد رفعت. (2014/04/20). المنسوجات الإسلامية في العصر العثماني في مصر. تم الاسترداد من قسم الآثار الإسلامية، جامعة حلوان، مصر، على الرابط:
<http://udc 234.achared.com/doc/with RFAF/preview.html>